

العمارة و الكتابة في رواية " سفر البنيان " لجمال الغيطاني من منظور

النقد الجغرافي

**L'architecture et l' Ecriture dans le Roman « Safar El Bounyan » par
Jamal Al ghitani: Perspective Géo- critique.**

د. مصطفى ولد يوسف *

أستاذ محاضر "أ" جامعة أكلي محند الحاج البويرة، الجزائر

ouldyoucefmustapha@gmail.com

تاريخ النشر: 2020.12.02

تاريخ القبول: 2020.11.22

تاريخ الإرسال: 2020.08.31

توطئة:

في النقد الجغرافي "géo critique" يتم تمثيل محور الفضاء وفق منصّات المتخيّل الجغرافي، إذ يتكاثف الوصف في مرجعيته الواقعية، متجاوزا الإرث المكاني، ليتحوّل إلى طبيعة ذهنية ووجدانية، يحاكي الحقيقة من خلال المشترك الحواسي والحدسي. وفي هذا المقال خلاصة لهذا التيار النقدي الجديد، وتحليل موضوعي في إطار جغرافية الفضاء لرواية "سفر البنيان" كنموذج تطبيقي، يؤصّل لتحليل النصّ الأدبيّ جغرافيا، دون الطعن في شعرته. الكلمات المفتاحية: عمارة، كتابة، جغرافية، النصّ الجيو النقدي.

Résumé:

Dans la critique géographique, l'axe de l'espace est représenté selon les plateformes de l'imagination géographique alors que la description se condense en sa référence réaliste au-delà de cet héritage spatial pour se transformer en une nature mentale et émotionnelle, simulant la réalité à travers la communauté sensorielle et intuitive. Dans cet article se trouve un résumé de ce nouveau courant critique et une analyse objective dans le contexte de la géographie de l'espace du livre de « Jamal Al ghitani » les livres infinis comme modèle ancré dans l'analyse géographique du texte littéraire sans remettre en cause sa poétique.

Mots clés: architecture – l'écriture - géographie – texte géo-critique.

* المؤلف المرسل

-1- في تأصيل مصطلح "الجيو نقدي" أو النقد الجغرافي:

في كلّ نصّ روائيّ حضور إلزامي للفضاء "espace"، وقد التبس على القراء والمتخصّصين هذا

المصطلح، وهو كون متخيل؛ حيث يتقاطع في أذهانهم المكان بالفضاء، والحقيقة الشعريّة "La réalité"

"poétique" ، فالفضاء تمثيل ذهني للمكان، وليس مرادفا له ونتيجة لذلك حاول الناقد "برترو فستفال" "Bertrand Westphal" الإجابة عن هذه الإشكالية بمحاولة تأسيس تصور جديد حول الفضاء في العمل الأدبي من خلال ما أستخدم عليه "الجيو نقدي" "La géo critique".
تهدف نظرية "الجيو نقدي" إلى تجاوز فكرة تمثيل الفضاء في الأثر الأدبي، من خلال التفاعل "interaction" الموجود بين فضاءات الإنسان والأدب.⁽¹⁾

ويؤكد "برترو فستفال" أنّ الاهتمام بالفضاء الجغرافي والإدراك الفضائي "La perception de l'espace" جاء بعد الحرب العالمية الثانية وحالة الدمار للفضاء المديني، مع تعقد الوضعيات الفضائية للإنسان الغربي، وظهور تصورات جديدة وحديثة في تمثيل الفضاء جغرافيا واجتماعيا وتاريخيا وحتى فنيا.⁽²⁾
ولا يمكن للرواية الحديثة أن لا تواكب هذه التحولات العميقة في هندسة المدن والأذهان وانفتاحها على العصرية، وتكيفها مع الحاجات المادية والذوقية المستجدة بفضل التسارع التقني والمعرفي؛ وبالتالي تصبح المدينة كتابا والكتاب مدنية في نظر "برترو فستفال".⁽³⁾

ويتحوّل الفضاء المديني إلى استعارة في الأثر الروائي، وعندما تقول استعارة لم يعد ذلك الفضاء حقيقة واقعية يخضع للخرائطية وشروطها "La cartographie"، حيث لا يمكن لسائح أن يعتمد على التفاصيل الوصفية لمدينة الجزائر في الرواية مثلا أن يحدد معالم طبوغرافية قارة يهتدي بها في جولاته السياحية، لأنّ الفضاء المائل أمامه في الرواية ذهني، مبني على رؤية استعارية مشوّهة للحقيقة، لكنّها مؤثرة وجدانيا.

يلح الباحث "برترو فيستفال" على الطّابع أو المقاربة المخيالية للفضاء في الرواية "une approche imago logique"⁽⁴⁾ وبالتالي فالسؤال الذي يطرح نفسه هو ما العلاقة بين الرواية كمقوم تخيلي والجغرافيا كمقوم واقعي وحقيقي؟! لا ريب أنّ تيار الجيو نقدي يريد أن يلامس الفضاء في الرواية على أساس أنّه لا يقوم في عالم المتخيل وفق مؤسس هذه النظرية إلّا على ثلاثة أسس هي:

أ. الزمنية La temporalité

ب. التّجاوز La transgression

ج المرجع La référence

فمن البديهي أن يكون الزمن والفضاء كتلة واحدة ،وقد جعل منهما ميخائيل باختين كثنائية حتمية ولازمة، مقترحا المصطلح "chrono tope" أي "الزمكانية"⁽⁵⁾ أما التجاوزية فهي تسعى إلى تجاوز الواقع الجغرافي الحقيقي من خلال التمثيل الخيالي، وطبعاً يخضع هذا التمثيل إلى ما يسمى التّأثير المتعدد "La multi focalisation"، حيث يتعدّد الوصف الرؤيويّ للموقع بتعدد الخبرات الشخصية والوضعيّات الانتمائيّة، فمثلاً مولود فرعون في وصفه لجغرافية منطقة القبائل لم يكن ذا طبيعة عقلية صارمة ، وإنما وجدانية وخصوبة مخيلته في تقديم هذه الجغرافية الطّبيعية والاقتصادية، وليس استنساخ الواقع الحقيقي بتفاصيله، لأنّ العلاقة بين الرّوائي ومحيطه الجغرافي الشّامل، أي العائلي والقروي أو المدني أو الطبيعي أو الاقتصادي أو الاجتماعي ككل ينطلق من الحميميّ أو الذاتي "l'intimité" إلى الخارجية "extranéité"⁽⁶⁾ ، و فيتحوّل ذلك الموقع الخام أو المحيط في جغرافيته الشّاملة إلى فضاء متخيل "espace fictionnel" يقوم على "متعدد الحواس" "la poly sensorialité"⁽⁷⁾، أو التشاركية الحواسية.

عندما يصف السّارد في رواية من روايات الرّوائيّ الجزائريّ "مولود فرعون" ولنأخذ مثلاً رواية "الدّروب الوعرة" فالمتخيل الخارجيّ لجغرافية الموقع الطّبيعيّ والاجتماعي يستدعي حواس الرّوائي جميعها، وبالتالي يتجاوز الحكم العقلي أو الذهني، لينمحي كذات حقيقية تاركا حواسه المجسّدة في السّارد تؤسس لما يسمى "واجهة المستعمل" "interface" بين الرّوائي المثقف و المسؤول أخلاقيا واجتماعيا وسياسيا في ضرورة التّفكير في مشروع حياة بديل للمشروع الكولونيالي المححف في حق الأهالي ، والسّارد المتحرر من هذه المسؤولية الذي يتعاطى مع عالمه المتخيل وفق المسكوت عنه، بجميع حواس الرّوائي، لأنّه لست له أية علاقة بواقع الرّوائي، وإنما بأنظمة وجدانه وسرائر أفكاره ولاوعيه وماضيه الحميميّ، ومجاله الحيويّ اللغة. أمّا المرجعية، فقد أكد الباحث "هايدن وات" "Hayden white" في تحليل التّاريخ على أنّه "تخييلات أدبية" "artifices littéraires" فالسرود التاريخية هي متخييلات لفظية "des fictions verbales"⁽⁸⁾ وهذا التّصور في سياق تعريفنا للمرجعية لا يختلف عن مفهومها، فالسلوك الكتابي في الأدب ينطلق من مرجعية جغرافية ما، لأنّ الرّوائي يعيش في محيط سياسي أو طبيعي أو اجتماعي معين، وبالتالي يحتويه مكان ما، وعندما ينقل كلّ ذلك المحمول الجغرافي، يتنازل عن دوره لصالح السّارد، فيتحوّل ذلك المحيط إلى محيط لغوي "environnement linguistique" أو لساني، ومن ثمة فالأدب

بصفة عامة والرواية بصفة خاصة مركب فعلي "syntagmes verbaux" من جغرافيات الواقع وجغرافيات المتخيل، فكل نص أدبي وله مرجعية من خلالها يتم تحديد هوية الانتماء الجغرافي له، لكي لا يسقط في المجهول النسبي، وهذا لا يعني أنه لم يخلق لنفسه مرجعية افتراضية محاورة للمرجعية الحقيقية من خلال شرائط فنية.

إنّ الفاعل الإيجابي في النصّ الروائي أنّه يهشم أولوية المكان على حساب الفضاء، حيث يصبح جزئية وليس محورا رئيسا، وقد يسأل سائل كيف ذلك؟.

لقد استقر تيار الجيو نقدي أو النقد الجغرافي على ضرورة تحليل الأعمال الأدبية من زاوية جغرافية الفضاء لا المكان، وذلك بالغوص في المحتشدات النفسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والانتروبولوجية، متجاوزا التمثيلات القياسية والهندسية والكرتوغرافية من خلال زاوية رؤية المبدع الخاصة، فالجغرافية الأدبية فضاء منتشر ومتحوّل ومجازي متخيل، وأداة للهوية والتّصارع⁽⁹⁾ في حين المكان أو الموقع الجغرافي مساحة هندسية، متنوع الأشكال والألوان والارتفاع لا يتسع للتأويل، لأنّه يكتفي بتحديد إحداثياته فيزيائيا وجغرافيا، وبالتالي عندما نتحدث عن النقد الجغرافي في الأدب نختص بالفضاءات التي تهمين فيها البصمة الذاتية بمواصفاتها الوجدانية والجمالية؛ فلم يكن الباحث "رائد جبار كاظم" مخطئا عندما قال بأنّ الجغرافية الطبيعية تصنع الجغرافية الاجتماعية وبقية الجغرافيات⁽¹⁰⁾، فالجغرافية الصحراوية محور جوهري لإدراك المعالم الجمالية والاجتماعية والعرفية للشعر الجاهلي مثلا، ولكن السؤال المعرفي الذي لا مفر منه، كيف نحلل النصّ الأدبي جغرافيا؟

لكي نتعاطى مع النصّ الأدبي وفق تيار النقد الجغرافي أو الجغرافية الشعريّة كما اصطلح عليها الباحث "ميشال كولو" "Michel Colot"، مقترحا جملة من الإجراءات التحليلية منها:

- إعادة الاعتبار للمرجع أي للخارجي، فالعالم الروائي مثلا لا يمكن له أن يفهم جغرافيا دون الرجوع إلى خوارجه الحقيقية، وهذا التوجه يرسّخ مقولة إدراك المعنى في الأدب مرتبط بجغرافيته الحقيقي ناسفة الطّرح البنيويّ في انغلاق النصّ على ذاته، والاكتفاء بمحملاته اللفظية، وخاصة أنّ الكتابة الجديدة تجنح كثيرا إلى المواضيع الجغرافية والأشكال المفضاة "des formes partialisées"⁽¹¹⁾

- بما أنّ الأدب شكل خاص ومتفرد للجغرافيا بوصفه يعيد إنتاجها شعريا "poétiquement" فلا بدّ أن نتحقق فيما يلي:

أ. حصر التحليل في النصوص ذات تبعية وصفية، التي محور القيمة فيها الفضاء بتبعاته التاريخية والتفسيّة والاجتماعية والثقافية، ومعنى هذا الكلام أنّ النصّ الروائي الذي يضع الفضاء كجزئية إجرائية، مفسحاً الدور الرئيس للشخصية يستثنى في الدرس التحليلي المقترح.⁽¹²⁾

ب. وجود علاقة تناضحية osmose بين الجغرافيا والتاريخ "une géo histoire"⁽¹³⁾ وبالتالي فكل محمول تاريخي ينطوي على المحمول الجغرافي، والعكس صحيح، فميدان الرواية التاريخية خصب لهذا التيار النقدي الجديد.

- تمكين هذا التيار من النصوص الوصفية للوضعيات الفضائية الكائنة والممكنة و الجغرافية المختلفة، ومن ثمة فنظرنا لوصف للفضاء لم تعد قائمة على مجرد الوصف لتأثير المتن الروائي أو للاستراحة كما يقول "جيرار جينت" وإنما يحمل طبيعة جغرافية ما، لأنّ الروائي عندما يستثمر الأمكنة في الواقع وصفياً يتجاوز تلك الجغرافية الماثلة أمامنا ليخلق منها ما اصطلحت عليه الباحثة "كرستين بارو Christine baron" الفضاءات الاستعارية "les métaphores spatiales"، لأنّها منتج ذاتي وخصوصي؛ على الرغم من أنّ الرواية أو الأدب بصفة عامة له بعد جغرافي من الأساس⁽¹⁴⁾ إضافة إلى بعده الثقافي.

في فضاء الرواية بقايا الأمكنة، وفي غياب الوصف الفضائي يستحيل تحديد جغرافية الأحداث وتاريخيتها، لأنّ الوصف هو الوسيلة المثلى لتحليل النصوص جغرافياً في نظر الروائي "ستيفان بورقينو" "Stéphane Bourguignon"، ومن ثمة نعود إلى مقولة انتماء الفضاء إلى الوصف والزمن إلى السرد أو الحكّي.⁽¹⁵⁾

دون وصفية الوصف لا يمكن ممارسة النقد الجغرافي كمقاربة تحليلية وموضوعية للمتن الروائي، ومن ثمة فالكتابة العابرة للفضاءات المؤنثة للنص، ولا تقف عند خبرة الأمكنة "L'expérience des lieux"⁽¹⁶⁾ في المخيال الروائي الذي يحيلنا إلى عوالم خرافية غنية بالعجائبية ممتعة القراءة، لكنّها غير مؤسسة على جغرافية الواقع أو الاحتمال، وبالتالي فالطرح الجيو نقدي حولها غير وارد البتّة في شكله الفضائي، فيكون البديل البحث عن الجغرافية التفسيّة، وهو ما نجتهد عليه في قادم أبحاثنا

2- في التمثيل التطبيقي للجيو التّقدي:

في محاولتنا لقراءة وتحليل رواية "سفر البنيان" لجمال الغيطاني جغرافيا نجد أنفسنا أمام أنموذج فريد لتجسيد آلية من آليات النقد الجغرافي، فالخاتمة النصي لهذا العمل يقوم على تهشيم الروائي للسرديّة التقليديّة القائمة على تصاعد الأحداث في حبكة المسالك الوعرة؛ ففي الرواية حشد للمفوضات العمارة "باب ، حامل ومحمول ، فناء ، فنو ، درج..." فنذر أن نجد رواية عربية تكون شخصياتها أبنية ، وفضاؤها عمارة ، ولغتها معمارية ، وفي كل جزء من أجزاء هذه العمارة حكاية: "كل بناء حامل ومحمول ، ليستمر التركيب ويتصل... حجر على حجر ، خشب مقطوع بحسبان... نحت يفضي إلى نحت..."⁽¹⁷⁾

إنّنا أمام نص يؤرخ لجغرافية وجود الإنسان بوجود العمران أو فضاءات الأبنية العتيقة ، والمفارقة أنّ الروائي شيّد عمله وفق تصميم معماري ، ففي كل طابق حكاية "étage narratif" ينفرّد بمصطلح ما ، ثمّ يمر إلى طابق آخر ليخلص في الأخير إلى إتمام البناية باكتمال الرواية.

في كنف النص حشد لمصطلحات معمارية تؤسس لمرجعية العمران المصريّ الغني بالإنجازات العمرانية كالأهرامات والعمارة الإسلاميّة ، ولا يخفى على أحد شغف الروائي بجغرافية التراث المعماري المصري ، فجاء تمثيل هذا التراث في سفرية روحية و "جيو تاريخية" géo historique "لاستقصاء فضاءاته المفتوحة على قراءة الذات بوصفها بناية أو فضاء يكتمل عندما ينضج الجسد روحيا ، فيترك الأثر الرمزي في ما خلصت إليه حياته من إنجازات معنوية و قيمية.

في توليفة عجيبة تكون حياة الإنسان امتدادا طبيعيا للمكون المعماري ، فلا فرق بين الكون أو الحياة والعمارة فهما يخضعان للمصطلحية نفسها ، وهي المشترك بينهما "كل فناء خلاء ، حتى إن حده سور أو أحاطت به عمارة أو أحرق به بنيان لا يقوم الخلاء بدون امتلاء صب أصم ، الأمر هنا قدسم الشيء لا يبرز إلى الوجود إلّا بصده"⁽¹⁸⁾ ؛ فبين الإنسان والفضاء المؤثث عمراننا مشترك الخوف من الخلاء ، وصورة الخلاء علامة الفناء المحتوم ، فالفضاء غير العاير ومأهول تراثا وتاريخا لم يعد له وظيفة ، مهجور ويغيب عن يوميات الناس ويفتقد لمعنى وجوده ؛ كذلك الإنسان المعدم روحيا ذو الفضاء المتصخّر.

3- الإنسان والكون الهندسي للعمران:

يرى الروائي أنّ الإنسان جسد معماري ، وهو بذلك لا يختلف مع "يوري لوتمان" الذي يؤكد بأنّ الإنسان يخضع في علاقاته الإنسانية لإحداثيات المكان⁽¹⁹⁾ . والفضاء ذو دلالة معمارية إلّا لم يعد فضاء

حيا ، حيث لا تكفيه جغرافية المكان والتضاريس في تحديد هويته، والإنسان ذو دلالة روحية وإلا لم يعد محمولا للحياة والانتماء الثقافي، لأنّ الجسد جغرافية الأعضاء ، مجرد ممر لهذه الروحانية التي ينشدها الكائن الواعي أو البصير، ولذلك نقف عند أهم المصطلحات العمرانية التي هي مفاتيح كشف الذات المأزومة وهي:

أ. الباب: مدخل البنية عبره يمتلئ الفضاء المعد للدخول، والباب أيضا عنوان لممر حياتي ووجودي قد تستقيم الذات منذ البداية، وقد تشتط عن الحقيقة: "أصعب ما يواجه الإنسان في وجوده المحدود، المؤطر يقدر رؤيته اهتزاز كل ما نشأ عليه...تكتمل الفجوة بين المرء وما يحيطه"⁽²⁰⁾. يقوم الباب / المدخل بتصدير صور التناقضات في جغرافية العلاقات الإنسانية، والانتصار للخير أمر غير محسوم في الحياة نهائيا.

ب. حامل ومحمول: تقوم العمارة على قاعدة الحامل والمحمول وهو يعقد مقارنة بين وضعية الإنسان بين العقل والنفس وضعية البنية "كل بناء من حامل ومحمول ليستمر التركيب ويتصل، لابد من تحميل شيء على آخر، حجر على حجر..."⁽²¹⁾ والإشكال أنّه لا يمكن للحامل أن يظل حاملا والمحمول يظل محمولا، فالخير والشر في حركية دائمة، يصعب تحديد ملامح الخير، وهو قد يكون منافقا ؛ ولامح الشرير، وهو على درجة عالية من الخبث "ما أصعب ما كان مستعصيا على الظهور سواء في بناء أفقي أو رأسي..."⁽²²⁾

براعة يحملنا الروائي إلى جغرافية البنيات العتيقة ذات محمول خبراتي ثري للذين عاشوا فيها ليقدم لنا تصوره الصّوفي للمعادلة القائمة بين الروح والجسد، أي بين الهوية والجغرافية، الخير والشر والعقل والنفس "لننظر إلى العمدة الشواهد، مختلفة التيجان، في الكرنك ومعبد الأقصر وأبيدوس وسائر البرابي الباقيات وأعمدة المساجد والكنائس... ما من بناء إلا ويفضي إلى آخر لذلك تتأكد الحركة...تؤكد أن الأمر دائري...يعني أنّ أي نقطة فيه بداية وأيضاً نهاية"⁽²³⁾.

لحظة الذهاب والإياب ونقطة البداية هي النهاية وثنائيات الروح والمادة، الخير والشر، الأعلى والأسفل في حركية دائمة وعكسية في آن واحد، ففي الحرب يتحوّل القتل إلى بطولة وشهامة، وفي السلم فهو جريمة ؛ فينتقل القتل من وضعية الأسفل إلى وضعية الأعلى في زمن الحرب، وبالتالي كل شيء في الوجود نسبي، وكلّ الأمور تنتهي إلى الرحيل، فلا معنى للفضاء في غياب الإنسان/ الحياة.

نحن أمام جغرافية المعماري الصوّفي وصمود الثقافة والفن في وجه الفناء والخلاء ينتقل بنا من معالم الهندسة العمرانية الكلاسيكية ذات الإرث الثقافي والفلسفي والجمالي الذي ينم عن عراقة الماضي الفرعوني والإسلامي إلى معالم جغرافية النفس البشرية ذات المنحى العمراني في تدرجها من الطفولة إلى الشيخوخة، من الولادة إلى النهاية.

ج. أساس: كل بناية وأساسها، وهو أصل كلّ شيء، وعلى الأساس كل بنيان ظاهر وله أساس غائب⁽²⁴⁾ ويضيف السارد قائلا: "إذا أردنا إقامة بنيان من ستة طوابق يكون الخفي منه محتويا لقدرة وطاقة توازي ما ينتصب في الفراغ فإذا احتل التوازن... يخيب المسعى ويجري الانحيار..."⁽²⁵⁾

نشعر بذلك الرّابط القوي بين الأصالة والمعاصرة، فالأصالة حامية للهوية ودون هوية لا يمكن بناء مجتمع متوازن وطبيعي، ومن ثمة تجاوز الماضي باسم الحداثة قصور في فهم هذه الحداثة، والقصد من الأصالة الانتصار للمنجز الحضاري والبطولي للأسلاف، بعيدا عن الانعزالية والإفراط في التّعني بالأجداد، وبالتالي التّفریط في مواكبة العصر، ولذلك لا بد أن تكون رؤيتنا للأصالة كمنصة انطلاق لا كقاعدة حياة ثابتة ومبتورة من الاستشراف والرؤى التنويرية، تبحث في الحلول في مسائل العصر تفاديا للفناء والتّصحّر المعرفي، فلا يكفي التراث لفهم الجغرافيات المستحدثة، وفي الوقت نفسه لا تكفي المعاصرة في إدراك ذواتنا، والبقاء في سباق المراهنة على المعرفة والخصوصية الثقافية التي هي علامة من علامات الهوية.

كلّ تنصل عن الأصالة مآله الضّيع، وكلّ تنصل عن المعاصرة مآله الفناء وعودة العبودية.

د. قبو: يعرف الباحث " علي ثويني " القبو بأنّه "العنصر الأكثر رسفا في عمائر الشرق... وعنصر هيكلية تسقيفي وعماري مكور انسيابي"⁽²⁶⁾ وبالنسبة للسارد فهو "صون وستر وخباء، لذلك فيه الحفظ، الرّحم قبو... حيث محل التّكوين..."⁽²⁷⁾.

يقدم السارد رؤية مغايرة للقبو، إذ يستثمر هندسته الفريدة لتقديم صورة الإنسان والكون "ليست الأقبية إلّا إشارات على الحضور والغياب، المصير والذهاب، الحقائق الجلية والأخرى التي لم ترك بعد"⁽²⁸⁾ إنّها عيّنة من المصطلحات المعمارية التي خاض فيها السارد تجربته الوجودية والفلسفية، فالرّوائي جمال الغيطاني يقول: "هناك مقولة لابن عربي مفادها أنّ الإنسان يسافر مع الأنفاس من نفس إلى نفس..." ونحن في حالة سفر دائم، والسّفر نوعان الأول سفر في المكان والآخر سفر في الذات، وأظنّ أنّي الآن في مرحلة السّفر في الذات"⁽²⁹⁾.

إذا كان الباحث الأمريكي "إدوارد سوجا" "Edwards W. Soja" عقد قرانا بين المدنية والرأسمالية من خلال الإسقاط الفضائي للرأسمالية "La projection spatiale du capitalisme"⁽³⁰⁾ فإنّ جمال الغيطاني عقد قرانا بين العمارة وحياة الإنسان، من خلال الإسقاط العمراني لمراحل حياة الفرد روحيا وماديا، فتوظيفه لجغرافية العمران القديم والغائر في الزمن دلالة على رؤية صوفية وفلسفية لهذا الإرث الذي ليس هو مجرد بنايات، وإنما حكايات وأجوبة لسؤال الوجود والمصير ، تنم عن حركية دائمة، وهي في وضعية الثبات، وهذه الحيوية والحركية مسكونة في متخيل الروائي، ألم يعلن "فولكنر" أنّ غاية كل فنان هو القبض على الحركة⁽³¹⁾.

إنّ هذه المقاربة الجغرافية في استكشاف النفس جعل الروائي الفضاء العمراني جوهر التأمل في التراث المادي ، فالعمارة القديمة في تناغم كلي مع الطبيعة الإنسانية في تنوعها وتجانسها، فيها ينتهي التشخيص العيني إلى التأمل في جمالها ، وصمودها لأنّها مبنية على أسس سليمة ومهابة الجانب، وهذا ما بنقص للإنسان العربي الذي أضحى خائبا ثقافيا و عمرانيا . ويعيدنا هذا التشخيص العيني إلى ذاتنا، ونظرا لقدرة المبدع على تمثيل الشخص لغة تتحوّل الذات الواعية إلى كتابة: "كل حرف بناء... ما قيمة الشرفة إذا وجدت بمفردها منفصلة مما يلزم لها ويلزم له؟"⁽³²⁾

من عمارة الحجر إلى عمارة الحرف، فالسارد يؤسس لتلك الجغرافية اللغوية التي لا تختلف عن جغرافية الميدان ، وبالتالي فكلّ منجز إنساني فضاء هوياتي، وعبر هذه الأفضية يتحقق الاحتواء المكشوف والمضمّر الغائب "الحروف توجل تماما مثل العمارة، الحرف في الحرف ليلد المعنى، الحرف ظاهر والمعنى غائب والدلالة حافظة..."⁽³³⁾ للعلم فإنّ الروائي قد ختم عمله بمصطلح "كتابة" منهي المقاطع الواصفة للبنيان الممثل للحياة المتوازنة.⁽³⁴⁾

4- في جغرافية العمارة والكتابة:

تعد جغرافية العمران فرعا من فروع الجغرافية الاجتماعية ، تشتغل في موضوعين أساسيين هما: السّكن المدني والسّكن الريفي⁽³⁵⁾.

وفي الرواية تمّ تطويق جغرافية الفضاء على المدنية بوصفها غطاء متطورا ومتغيرا باستمرار⁽³⁶⁾ ، لم يحدد الراوي أو السارد زمنا للبنيان، فهو فضاء منتم للحضارات المتعاقبة على مصر، وطبعاً كان ذلك مقصودا، فالإنسان قيمة متغيّرة وهويات متعددة، فإذا كانت صفات الفضاء الجغرافي متغيرا كذلك قيمته⁽³⁷⁾

وبالتالي فالعامل الزمني يؤثر في قيمة الفضاء، ويبقى المنجز الحضاري شاهداً على قيمة ذلك البنيان، كذلك الإنسان؛ فقيمته في إنجازاته الفردية كعضو منتج للقيمة المضافة، والكتابة منجز الروائي كما كانت الأهرامات منجزات الفراغية "المدنية ليست احتمالا أو فرضية إنما ماثلة قائمة..."⁽³⁸⁾ وفي تثنين جغرافية المدنية بوصفها إشعاعاً ثقافياً وحضارياً ترسيم اعتزاز الروائي بانتمائه لحضارات النيل، ومنها تكونت شخصيته الثقافية والتراثية، يؤكد على ذلك الامتداد الروحي والجمالي لكيانه الملتحم بها من خلال جغرافية الكتابة التي تبنت الموروث العريق في أبنيتة الشاهدة على عظمة الانتماء تصوراً وأسلوباً ووعياً؛ فكل نص من نصوص جمال الغيطاني تجوال روحي وتاريخي في مسالك جغرافية التراث المترامي، وها هو الفضاء العمراني يسطو على عالمه الروائي، فيقدم نفسه كبنية معقدة التصميم، هندسية المشاعر، تقاوم الزمن لتنتصر على الخلاء عبر الكتابة: "في كل مأوى عمارة ولكل عصر بناء... لماذا لا يتجه الجهد لإيجاد العمارة التي يمكن أن تسكن فيها المعاني والإشارات؟"⁽³⁹⁾

لا يختلف تصميم الهندسة المعمارية عن شعرية الكتابة، حيث لا توجد عمارة دون الحاجة إليها بحكم أنها ضرورة اجتماعية وثقافية ودينية ويتجلى ذلك في عمارة الحضارات القديمة⁽⁴⁰⁾ لتأثير فراغات الفضاء الذي يتحول مع مرور الوقت إلى شعرية الاحتواء والانتماء الهوياتي؛ كذلك الكتابة من خلال جمالية التصميم الملفوظاتي والبراعة الأسلوبية، وخلق المعنى لتأثير فراغات النفس وإشباع جغرافية الأهواء والأذهان.

لم يكن المنظر الروماني "فيتروفيوس" "Vitruvius" على شطط عندما أكد أنّ الهندسة المعمارية مولدة للحضارة وأنّ جميع الفنون ومجالات المعرفة تنحدر منها وبالتالي ترقى إلى مستوى الفكر الفلسفي⁽⁴¹⁾ وهذا ما تنبه إليه الروائي والشاعر الإيطالي "ألبرتي Alberti" الذي رأى في العمارة جمالية الشعور بالسعادة والفخر وتعزيز جذور الانتماء⁽⁴²⁾.

الواضح أنّ الكتابة والعمارة شكلان لشعرية واحدة، حيث فيهما الابتكار وخصوبة الخيال، وعمق المسارات الفكرية والفلسفية المتلازمة مع طبيعة حياة الإنسان.

لقد كانت رواية "سفر البنيان" بمثابة التأسيس للكتابة المعمارية "L'écriture architecturale" التي تشغل في جغرافية المحتوى المكاني والروحي، هدفها فهم الوجود الإنساني من

خلال تقصي دلالة المباني، وفي هذا الشأن يقول "جاي هورتون" بأن "الكتابة تتوسط العمارة بالطريقة التي تتوسط بها الحياة".⁽⁴³⁾

وهذه الكتابة المعمارية قامت على إستراتيجية التّرميز ومهارة الوصف، منبثقة من خبرة معرفية بالتّراث المعماري، وحرفيّة التّأليف الإبداعي لتخلص الماكنة السّردية إلى إتحافنا بنص لا يستجيب لقراءة عابرة، لأنّه بناء متكامل لا يعرف التجزئة، تكون القراءة على درجة الصّفر وعيا ووجدانا، إذا لم تصف احتراز الظّاهر، وتغوص في معترك تفكيك رموز محفل المعاني للوصول إلى حقيقة التّحول ومفترقات الجمال المكشوف والمستتر على الوعي المحتضر بسبب سلطة المادة، فالكون متغير باستمرار والثبات بدعة، والكتابة موصوفة على العمارة، والعمارة صفة و قصّة الإنسان من مولده إلى مماته، ولم تنته بعد، وهي تحفظ السّر والكتابة كذلك.

إنّ رواية "سفر البنيان" بمثابة ذلك النموذج الملائم للتّحليل النقدي جغرافيا، لأنّها تتوافر على العناصر المحوريّة المطلوبة في مثل هذا التيار النقدي المستجد حديثا والجديد على الدرس النقديّ العربيّ.

- إحالات:

1. جمال الغيطاني، سفر البنيان، دار الشروق، مصر، ط1، 2008.
2. جوزيف إ. كسينر، شعريّة الفضاء الرّوائي، تر: لحسن أحمامة، أفريقيا الشرف، ط1، 200.
3. رائد جبار كاظم، هيمنة الجغرافيا ونقد سلطة الحدود، صحيفة المثقف، الرابط www.almothaqaf.com، العدد 4261، المصادف: ماي 2018.
4. صبحي حديدي، جغرافية الأدب وبيئة النفس، القدس العربي، الرابط www.alquds.co.uk، التاريخ 30 يونيو 2019.
5. عبد الفتاح محمد وهيب، في جغرافية المدن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980.
6. علي ثويني، الثابت والمتغير في عمارة الشعوب الإسلامية، جريدة "إيلاف" الإلكترونية، الرابط www.de-elaph.com، التاريخ 2006/12/01.
7. م. علاء عبد الرحمن، تلازم الوظيفة والدور في الهندسة المعمارية، مجلة الأدب العلمي، العدد 14، مايو 2016، الرابط: www.scientificliterature-mag.blogspot.com.
8. محمد بكري، حوار مع الكاتب المصري جمال الغيطاني، جريد الحياة، الرابط <http://langu-arabe.fr>، التاريخ 22 يوليو 2015.

1. Christine Barou, littérature et géographie, lieu, espaces paysage et écriture, revue fabula, www.fabula.org.Mai 2011.lht n°8.
2. Christian de la croix, sortir de l'opposition entre histoire et littérature, www.encyclopédieuniversalis.
3. coraline darbet, géo critique : théorie, méthodologie, pratique, Fabula, la recherche en littérature, www.fabula.org.Mai.2008 (volume 9, numéro 5).
4. Fabrizio di pascale, territoire, espace, lieu, élément pour une réflexion géo critique, www.ejournals.eu.pliki.
5. Frédéric dufaux et sophie didier, Edward W. soja : a la recherche de la justice spectrale, www.Researchgate.net/ publication, january 2014.
6. Marc Brassons, l'espace littéraire en l'absence de description, revue cahiers de géographie du Québec, volume 52 numéro 147, décembre 2008, www.erudit.org.D.N le 13/mai/2009.
7. Michel Colot, pour une géographie littéraire : une lecture d'archipel de clande simono, revue carnet, www.journal.openedition.org.mais.2015.
8. Michel Colot, pour une géographie littéraire : une lecture d'archipel de clande simon, <http://doi.org/10.400/carnet.1380>.
9. westphal, Bertrand, pour une approche géo critrique des textes, société française de littérature général et comparée, www.sflgc.org.

¹ -Voir : coraline darbet, géo critique : théorie, méthodologie, pratique, Fabula, la recherche en littérature, www.fabula.org.Mai.2008 (volume 9, numéro 5).

² -Voir : Westphal, Bertrand, pour une approche géo critique des textes, société française de littérature général et comparée, www.sflgc.org.

³ -Voir : Ibid.

⁴ -Voir : Westphal Bertrand, pour une approche géo critique des textes, www.sflgc.org.

⁵ -Voir : Fabrizio di pascale, territoire, espace, lieu, élément pour une réflexion géo critique, www.ejournals.eu.pliki.

⁶ -Voir : Fabrizio di pascal territoire, espace lien élément pour une réflexion géo critique, www.ejournals.eu.pliki.

⁷ -voir. Ibid.

⁸ - Voir : Christian Delacroix, sortir de l'opposition entre histoire et littérature, www.encyclopédieuniversalis.

⁹ - صبحي حديدي، جغرافية الأدب وبيئة النفس، القدس العربي، الرابط www.alquds.co.uk، التاريخ 30 يونيو 2019.

¹⁰ - ينظر: رائد جبار كاظم، هيمنة الجغرافيا ونقد سلطة الحدود، صحيفة المثقف، الرابط www.almothaqaf.com، العدد 4261، المصادف: ماي 2018.

¹¹ -Voir : Michel Colot, pour une géographie littéraire : une lecture d'archipel de clande simon, revue carnet, www.journal.openedition.org.mais.2015.

¹² -Voir : Michel Colot, pour une géographie littéraire : une lecture d'archipel de clande simon, <http://doi.org/10.400/carnet.1380>.

¹³ - Voir : Ibid.

¹⁴ - Voir : Christine Barou, littérature et géographie, lieu, espaces paysage et écriture, revue fabula, www.fabula.org. Mai 2011. lht n°8.

¹⁵ - Voir : Marc Brosson, l'espace littéraire en l'absence de description, revue cahiers de géographie du Québec, volume 52 numéro 147, décembre 2008, www.erudit.org. D.N le 13/mai/2009.

¹⁶ - voir : Ibid.

¹⁷ - جمال الغيطاني، سفر البنين، دار الشروق، مصر، ط1، 2008، ص 29.

¹⁸ - جمال الغيطاني، سفر البنين، ص 63.

¹⁹ - ينظر: جوزيف اكسنر، شعرية الفضاء الروائي، نقلا عنه، تر: لحسن أحامدة، أفريقيا الشرف، ط1، 200، ص 9.

²⁰ - الرواية، ص 11.

²¹ - المصدر نفسه، ص 29.

²² - المصدر نفسه، ص 31.

²³ - المصدر نفسه، ص 29، 30.

²⁴ - الرواية، ص 99.

²⁵ - المصدر نفسه، ص نفسها.

²⁶ - علي ثويني، الثابت والمتغير في عمارة الشعوب الإسلامية، جريدة "إيلاف" الإلكترونية، الرابط www.de-elaph.com، التاريخ 2006/12/01.

²⁷ - الرواية، ص 133.

²⁸ - المصدر نفسه، ص 134.

²⁹ - محمد بكري، حوار مع الكاتب المصري جمال الغيطاني، جريد الحياة، الرابط <http://langue-arabe.fr>، التاريخ 22 يوليو 2015.

³⁰ - Voir : Frédéric dufaux et sophie didie. Edward W. soja a la recherche de la justice spatiale, [www.Researchgate.net/ publication](http://www.Researchgate.net/publication), january 2014.

³¹ - ينظر: جوزيف إ. كيسنر، شعرية الفضاء الروائي، نقلا عنه، ص 29، 30.

³² - الرواية، ص 265.

³³ - المصدر نفسه، ص 266.

³⁴ - ينظر: جوزيف إ. كيسنر، شعرية الفضاء الروائي، تر: لحسن أحامدة، ص 145.

³⁵ - ينظر: عبد الفتاح محمد وهيب، في جغرافية المدن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص 10.

³⁶ - ينظر: المرجع نفسه، ص 36.

³⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص 76.

³⁸ - الرواية، ص 246.

³⁹ - الرواية، ص 264.

⁴⁰ - ينظر: م. علاء عبد الرحمن، تلازم الوظيفة والدور في الهندسة المعمارية، مجلة الأدب العلمي، العدد 14، مايو 2016، الرابط: www.scientificliterature-mag.blogspot.com.

⁴¹ - ينظر: المرجع نفسه.

⁴² - ينظر: المرجع نفسه.

⁴³ - جاي هورتون لماذا لا توجد كتابة معمارية؟ الرابط www.aru-architecturaldesignschool.com